

تاريخ الحديث ومعرفة جوامع حديث الشيعة

آية الله السيد أحمد الروضاتي
تحقيق: د. عبدالحسين طالعي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله وعلى آل الله، ثم على رواة أحكام الله. وبعد؛ فقد طلع الكوكب النير الإسلامي في أفق الشرق، فأضاء العالم كله وأرجاء البسيط بأشعته اللامعة. ذلك العالم الذي توغل في الجهل والتوخش والبربرية، ذلك العالم الذي غلب على أهله الظلم والجور وشاع بين أفراد العدوان، ذلك العالم الذي بُعد عن العدالة الاجتماعية ولم يكن لأفراده نصيب من الإنسانية والمدنية.

في ذلك العالم وفي تلك الآونة الخطيرة ظهر نبي الإسلام ﷺ، وأحى قلوب الناس بقرآنه الكريم وكلماته الذهبية وأحاديثه التي ألقى إليهم في محاضراته الدينية.

فتراه تارة يقول مخاطباً للعرب: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»^١ ويدعو الناس على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم في الشرك والكفر إلى التوحيد ونبد الجبت والطاغوت؛ وأخرى يحرّص الناس ويرغبهم إلى تحصيل العلم والعمل بقوله: «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»^٢. وثالثة تراه يمنع عن القتل والجناية بقوله تعالى: «ولا تقتلوا النفس

١. ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١ ص ٥٦.

٢. الزمر: ٩.

التي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بالحقّ»^١. ورابعة تراه قائماً وناهضاً لتحكيم مبادئ العدالة الاجتماعية بقوله تعالى: «اعدلوا هو أقرب للتقوى»^٢. وخامسة تراه جالساً على المنبر يقرأ قوله تعالى: «ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك»^٣ ويأمر الناس إلى الرقى في المدنية والسير حول ما يجب لتقدّم كلّ مسلم في الأمور الدنيوية وينهاهم عن الكسل والإعراض عن زخارف الدنيا ولذائدها ويؤيخ على هذه الحالة الوخيمة بقوله تعالى: «قل من حرم زينة التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق»^٤

وإني لست بمغالٍ إذا صرحت علناً وقلت أنّ الإسلام مفتوح باباً على مصراعيه و هو واسع الإرجاء ليتلقّى الرقى الحديث الذي تجبه الأجيال الطويلة وليس بمحدود الأطراف وضيق المدخل لكن لا بالمعنى الذي يريد به بعض شبابنا المفرطين في التمدّن الحديث، بل في حدود متابعة الكتاب والسنة وفقه الشيعة لأنّ تعاليم الرفيعة للإسلام وضعت لكرور الدهور، وستبقى خالدة وضآته الأنوار تكسف كلّ مدينة تتمحّض عنها العصور.

إنّ الإسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب إلى الفسق والفجور، وكيفيه فخراً أنّه قدّس الإنسان وعظّمها ليرغب الرجل بالزواج ويعرض عن الزنا المحرّم شرعاً وتشريعاً.

ذلك الزنا الذي شاع اليوم في المجتمع بين شبابنا وفتاتنا باسم المدنية والحريّة؛ فتباً لهذه المدنية وأفّ لتلك الحريّة. إنّ الإسلام ذلك الدين الذي قد حلّ بعقليّة عالية أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل الآن تشغل مشرعي الغرب بتعاقيدها.

وبالجملة قام النبيّ الأقدس صلوات الله عليه وعلى آله في الصّقع الواسع الذي يسمّونه اليوم بالمملكة العربيّة السعوديّة، ونهض لإصلاح مفاصل الأخلاق الشائعة بين الأمّة؛

١. الأنعام: ١٥١.

٢. المائدة: ٨.

٣. القصص: ٧٧.

٤. الأعراف: ٣٢.

بل جعل ذلك علة غائية لنبوته، حيث يقول في كلماته الذهبية: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^١.

ولنعم ما قال الدكتور شبلي شميل، ذلك الرجل الطبيعي المعروف، والذي نقم على كل دين يضرب على وتر الإنصاف، فيقول: «إنَّ في القرآن أصولاً اجتماعية عامة صالحة للأخذ بها في كل زمان ومكان حتَّى في أمر النساء، فإنَّه كلفهنَّ بأن يكنَّ محجوبات عن الرِّيب والفواحش. وأوجب على الرجل أن يتزوَّج واحدة عند عدم إمكان العدل. وإنَّ القرآن فتح أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة ولترقية الروح بعد أن سدَّ غيره تلك الأبواب. فقصَّروا وظيفة البشرية على الزَّهد والتخلِّي عن هذا العالم الفاني». انتهى كلامه.

لكن إذا فتشت عن جميع تلك القوانين الشاملة الكافلة الحاوية لسعادة الإنسان في التشاتين التي جاء بها نبي الإسلام ﷺ، وذكرت لك نموذجاً من فهرسها إجمالاً، لا تجدها في القرآن الكريم فقط، وليست كلّها بموجودة في السَّنة النبوية فحسب؛ بل ذُكرت كلياتها في القرآن وأورد النبي والأنمة عليه السلام جزئياتها في الأخبار المروية بطرق معتبرة ومسندات عالية السند، ولذا ترى النَّبي ﷺ يقول في الحديث المتواترين الفريقين المعروف بحديث الثقلين: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، إلى أن قال: إنَّهما لن يفترقا حتَّى يردا عليَّ الحوض»^٢. فالقرآن والحديث يسيران على الأغلب معاً كتفاً إلى كتف وجنباً إلى جنب، لا يستغني أحدهما عن الآخر، بل في بعض الموارد لا يمكن تفسير أحدهما بدون وجود الآخر.

ولشدة مسيس الحاجة إلى أحاديث النَّبي ﷺ شمّر لمسلمون منذ زمن النَّبي ذيولهم لجمع شتات أحاديثه لاسيما مع حثه صلوات الله عليه وآله إياهم بقوله: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً ممّا يحتاجون في أمور دينهم بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً»^٣؛ بحيث بلغ عددهم زمن الإمام الصادق صلوات الله عليه إلى أربعمئة

١. محمد تقي المجلسي، روضة المتقين ج ٦ ص ٤٠٢.

٢. الميلاني، نفحات الأزهار، مجلد حديث الثقلين.

٣. الصدوق، ثواب الأعمال، ص ١٣٤.

رجل، وهم مؤلفوا أربعمئة مصنف يسمّى في اصطلاح المحدثين والرجاليين بالأصول الأربعمئة.

والمزايا التي توجد في هذه الأصول ومؤلفيها دعت أصحابنا إلى الإهتمام بشأنها قراءة ورواية وحفظاً وتصحيحاً، والعناية الزائدة بها وتفضيلها على غيرها من المصنّفات. وحيث لم تكن الأصول مرتبة مبنية ولا منقّحة مهذّبة لأن جلّها من إملاءات المجالس وجوابات المسائل النازلة المختلفة المتفرقة من أبواب الفقه والأصول، اتجهت أفكار الفقهاء والمحدثين منذ زمن قديم حتّى الآن إلى جمعها وترتيبها وتهذيبها بطرز فتي، تسهيلاً للتناول والانتفاع بها.

الجوامع الأولى

فألّف شيخنا الإمام رئيس المحدثين الشيخ محمد بن يعقوب الكليني المتوفى في شهر شعبان من سنة تسع وعشرين وثلاثمئة (٣٢٩) وهي سنة تناثر التّجوم كتابه الجامع المسمّى بالكافي، الذي قال في حقّه الشّهاد الأول في إجازته للشيخ عليّ بن خازن الحائري: «كتاب الكافي في الحديث، الذي لم يعمل في الإماميّة مثله». وقال العلامة في الخلاصة أنّه ألّف الكافي في عشرين سنة^١.

ثمّ ألّف بعده شيخنا المحدث المتبحر الشيخ محمد بن الشيخ عليّ بن الحسين بن بابويه القمي المشتهر بالشيخ الصدوق، المتوفى سنة ٣٨١ إحدى وثمانين وثلاثمئة كتابه الجامع «من لا يحضره الفقيه».

وبعدّه ألّف شيخنا الإمام الفقيه المحدث الأصولي المحقق المدقّق الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، المتوفى سنة ستين وأربعمئة (٤٦٠) كتابيه «التهذيب» و«الاستبصار».

وكان سيّدنا الأستاذ الاستناد خاتمة الفقهاء والمحدثين الحاج آقا حسين الطباطبائي

١. الحلّي، خلاصة الأقوال، ج ١ ص ٢٤٥.

البروجردى أعلى الله مقامه الشريف في مجلس درسه يعبر عن الكتب الأربعة بالجوامع الأولى، كما سمعت منه غير مرة.

الجوامع الثانوية

ثم مضت قرون متوالية، فجمع عدة من أعظم العلماء كتباً في الحديث، عبر عنه أستاذنا المذكور بالجوامع الأخيرة، ونحن نعبر عنه بالجوامع الثانوية، تجاه ما يأتي من الجوامع.

أولها كتاب «جوامع الكلام» للسيد العلامة الميرزا محمد بن السيد شرف الدين علي الجزائري، وهو من مشايخ صاحب البحار وصاحب الوسائل والسيد المحدث الجزائري وغيرهم. وكتابه هذا لم يطبع حتى الآن^١.

ثانيها كتاب «تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة» تأليف شيخنا المحدث المتبحر الشيخ محمد بن الحسن الخراساني، وهو كتاب جيد ومن مصادر الفقهاء والاستنباط لعامة أهل العلم حتى اليوم.

ثالثها كتاب «الوافي» تأليف العلامة المحقق الجامع، الملام محمد محسن الفيض الكاشاني.

رابعها كتاب «بحار الأنوار» تأليف العلامة المتبحر المحقق الملام محمد باقر المجلسي. ومن عجيب الاتفاق كون مؤلفي هذه الجوامع من المحمدين، كما أن كلهم من بلاد العجم.

الجوامع الأخيرة

أما الجوامع الأخيرة فيطلق عندنا على خمسة من كتب المتأخرين والمعاصرين. أولها كتاب «مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل» للعلامة المحدث الرجالي الخبير، الحاج ميرزا حسين النوري، المتوفى سنة ١٣٢٠.

١. انظر مقال \$\$\$\$ فصلية سفينة، \$\$\$\$.

ثانيها كتاب «مستدرك البحار» من تأليفات العلامة المتبحر المتتبع الجامع المعمر، شيخنا في إجازة الرواية، الشيخ الميرزا محمد بن رجب على الطهراني العسكري نزيل سامراء في هذه الأواخر، والمتوفى بها يوم الاثنين ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣٧١ هـ إحدى وسبعين بعد الثلاثمائة وألف؛ وهو يوم وقوع كسوف الشمس بحيث انكسف تمام قرصه وتبدل اليوم المضىء بليلة ظلماء.

وقال الأديب الميرزا حبيب الله الاصفهاني المتخلص بـ «نير» في رثائه:

شجانا الدهر والعيش نكد	لرحلة عالم حبر مسدد
مضى بدر المضىء وفخر طهران	توفي آية الله الممجد
دعاه المستجار إلى جواره	و مسكنه بسامراء أبدا
كسوف الشمس محسوساً ومعنى	يُرى في فقد ذا المولى المؤيد
أراد التبرير التوضيح للفوت	ففي الإثنين روح منه تسعد
فلما نقص الإثنين أرخ	أوى في الروض مولانا محمد (١٣٧١)

وقد كان من تلامذة المجدد الشيرازي الكبير والملاحسين قلي الهمداني والمولى فتحعلي السلطان آبادي والحاج ميرزا حسين التوري^١.

فقد استدرك هذا الشيخ على تمام مجلدات البحار، وجعل كتابه في ست وعشرين مجلداً، وتشرفت بزيارة نسخته الأصلية بخطه الشريف في مكتبته عام تشرفي إلى العتبات العاليات. وقد أشار إليه شيخنا العلامة الشيخ آقا بزرگ الطهراني سلمه الله أيضاً في ج ٣: ٢٧ من الذريعة؛ فقال ما نصه:

«مستدرك البحار الذي كان تأليفه من آمال العلامة المجلسي وقد وعد به كراراً ولم يمهله الأجل؛ لكن استدرك في عصرنا على كثير من أبواب تمام مجلداته ولا سيما مجلد الإجازات منه؛ فإنه بلغ استدراكه أربع مجلدات ضخام كما ذكرناه في عنوان الإجازات». انتهى كلامه.

١. انظر مقال: \$\$\$ في كتاب فرهنگ بان \$\$\$

وقد نقل عن بعض مجلّدات هذا الكتاب الشّريف أيضاً شيخنا العلامة المعاصر الحاج الشّيخ على أكبر النهاوندي المتوفى سنة ١٣٦٩ في البساط الثاني الملقب بالمسك الأذفر من كتابه «العقبريّ الحسان» ص ٩٧، وكتب كلمة قيمة حول جلاله قدر مؤلّفه المرحوم، فليراجع.

وبالجملة حقّ له رحمه الله أن يستدرك على البحار، لأنّه كان من أحفاد العلامة المجلسي كما كتب بخطّه الشّريف إلينا في رقيمته المورّخة ٢٣ ذى القعدة الحرام سنة ١٣٦٩ فقال:

«انتساب الحقير إلى العلامة المجلسي من قبل جدّي الأمّي، وهو السيّد العابد الزّاهد السيّد أبوالقاسم الحسينيّ الأب الطباطبائي الأمّ؛ وكان يقول لي أنّ أمّه من أحفاد العلامة المجلسي. وكان من زمن ولادته إلى هذا التاريخ (أي سنة ١٣٦٩) مائة وأربعين سنة. و كان يقول أنّ جدّه السيّد إسماعيل مدفون بتخت فولاد إصفهان. وعلى أيّ حال لعلّ والدته المرحومة كانت من أحفاد المجلسي». انتهى تعريب كلامه.

وكان هذا الشيخ الجليل من مشايخ إجازة أكثر علماء العصر. وكتب بخطّه الشريف أيضاً إجازة لنا في الثاني عشر من شهر ربيع الأوّل سنة ١٣٦٩ التاسعة والسّتين بعد ثلاثمائة وألف القمرية.

ثالثها كتاب «المستدرك في استدراك ما فات عن صاحب المستدرك» من تأليفات السيّد العلامة الفقيه الأصولي المحقّق أحد الرّعماء الكبار في هذه الأواخر ببلدة قم، شيخنا في الزّواية وأستاذنا العلامة السيّد محمد الحجّة الكوه كمرّي التّبريزي، المتوفى سنة ١٣٧٢؛ وقد تشرّفت بزيارة مجلّدين من نسخته الأصليّة عند مؤلّفه البارّع أيّام إقامتي بقم المحميّة، وقد كتب بخطّه الشّريف إجازة لنا في ١٢ شهر رجب سنة ١٣٦٩ ق^٢.

وله أيضاً كتاب «جامع الأحاديث والأصول»، ولم أره، ولكن ذكره صديقنا الفاضل

١. وهو مستدرك المجلّد الثالث عشر من البحار، في الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

٢. انظر: فهرس مخطوطات مكتبة السيد محمد حجة \$\$\$\$

المعاصر رحمه الله في (ج ١ ص ٣١٠ من كتابه ريحانة الأدب).

رابعها كتاب الجامع الكبير، المسمّى بـ «لواء الحمد» من تأليفات الإمام العلامة الأعظم الفقيه المجتهد الأصولي المحقق الورع، شيخنا في الزواية، الحاج سيّد صدر الدين الصدر، أحد الزعماء الكبار في حوزة قم، المتوفى سنة ١٣٧٣. و من ذوي الشخصيات البارزة الفذة الاسلاميّة، و من الذين قلّ نظيرهم في العالم الاسلامي و عديم المثيل بين علماء الدين.

جمع بين العلم والعمل والأخلاق. وقد جعلته مصداقاً للإنسان الكامل؛ فإنّه رحمه الله بذل كلّ ما يتعلّق به في جميع الشؤون في سبيل ترويج الدين و حماية المسلمين. أعلى الله مقامه^١.

وبالجملة كتابه «لواء الحمد»، قد جمع فيه كلّ ما روي عن النبي ﷺ بالخصوص من طرق العامّة والخاصّة في جميع أبواب الفقه والأصول والأخلاق والتفسير والسّنن والآداب. وهو كتاب مبتكر في موضوعه، لم يسبق إليه أحد في تأليفه.

و كان حدّثني نفسه في هذه الأواخر، ويقول: «جعلت لكتابي هذا مقدّمة مبسّطة ذات فوائد جمّة وبسطت الكلام حول حديث الثقلين ودلالته بما يلزم الخصم، ولا يبقى مجال لإخواننا أهل السنّة إلاّ اتباع أئمّة الشيعة».

وفذلكة الكلام أنّ لأجل هذا وأمثاله لعلّه سمّاه «لواء الحمد». ولا بأس بالإشارة إلى نكتة دقيقة تُعرب الحقيقة وتكشف الغطاء عن اسم الكتاب. وهو أنّه قد روي في أحاديثنا كثيراً روايات حول لواء الحمد، وأنّه بيد علي عليه السلام يوم القيامة. وقد أوردها العلامة المجلسي في البحار، وذكره المؤلّف [أي: المحدث القمي] في سفينة البحار ج ٢ ص ٥١٧.

لكنّه أحببت هاهنا إيراد كلام دقيق يلوح على وجناته التحقيق، وهو للمحدث

١. انظر كتاب صدرنامه في مجلدين، من إصدارات مؤسسه كتابشناسي شيعه (تراث الشيعة)، قم.

المتكلم الفيلسوف العارف المشهور، ابن أبي جمهور الأحسائي في كتابه (المجلّى ص ٣٠٦ و ٣٠٧)، فقال ما نصّه:

«أقول: اللّواء الصوري هو الجسم المعروف على ما ورد في الأحاديث الصحيحة أنّ الله تعالى يوم القيامة يُعطي محمداً ﷺ لواء الحمد، يحمل بين يديه ظلّه مسيرة خمسمائة عام يستظلّ بظلاله جميع الخلق، وكلّهم يلوذون به، وقد نصّ ﷺ أنّ حامله يومئذ بين يديه علي ﷺ إلى الجنّة في قوله ﷺ: يا علي! أنت حامل لوائي يوم القيامة^١.

وأما المعنويّ، فيُراد به المرتبة الكلّية الحاوية لجميع مراتب الكمال، فإنّها لا أعظم ولا أجلّ منها لشدّة امتدادها وقوّة إحاطتها بحيث يكون الكلّ إنّما يستفيد الكمال منها؛ فكلّ كمال وجمال في عالم المعاني أو في عالم الصّور فهو مستفاد من تلك المرتبة ومحوي لها؛ فهي لواء الحمد، الجامع لمحامد الخصال، فآدم ومن دونه تحته لاستفادتهم الكمال منه؛ وعلي ﷺ هو حامل ذلك اللّواء إذ لم يطق أحد من الأصحاب والأنساب على حمل أسرار تلك المرتبة غيره ﷺ». انتهى كلامه.

وأنا أقول: فكان العلامة الصّدر أشار باسم كتابه إلى أنّ جميع الفرق الاسلاميّة لابدّ أن يأتوا تحت لواء علي ﷺ ويأخذوا ويعملوا بالثقلين لتحصيل سعادة الثّشأتين. وهذا المعنى لطيف جدّاً. نسئل الله توفيق أهل الخير لنشر هذا الأثر التّفيس، خدمة للدين.

وقد كان هذا السيّد الحبر الجليل رؤوفاً وعطوفاً بي، وكتب لي إجازة في سنة ١٣٦٨ ثمان وستين بعد ثلاثمائة وألف القمريّة.

خامسها كتاب «جامع أحاديث الشيعة في أحكام الشّريعة»، وهو تأليف عديم المثيل بين كتب الحديث للإمام العلم المجتهد الكبير الفقيه الأصولي الرّجالي المحقّق المدقّق، الذي عقلت أمّ الدّهر أن تأتي بمثله في الجامعيّة والتحقيق وسرعة الانتقال والورع والتّقى والاحتياط الشّديد في أمور الدّين والدنيا، زعيم الشيعة وعميدها الأكبر، الحاج آقا حسين الطباطبائي البروجردي أعلى الله مقامه.

١. الكراجكي، الرسالة العلويّة، ص ٤٦.

فإنه رحمه الله خلع بباله منذ زمن قديم أن كتاب الوسائل لشيخنا الحرّ العاملي، الذي هو من أهمّ مصادر الفقه والاجتهاد، مع علوّ شأنه بين كتب الحديث لا يخلو من نقائص وعيوب قد أصعبت أمر الاستنباط لطلّاب الفقه الجعفري ولكلّ من ضالّته المنشودة الظفر على كلّ دليل يمكن أن يكون الأخذ به ذريعة لسهولة السّلوّك في سبيل الفقهة من قبيل الفحص عن جميع المخصّصات والمقيّدات والمعارضات والمؤيّدات إلى غير ذلك من التّكات.

و كنت أحضر مجلس درسه في سنة ١٣٧٠ سبعين وثلاثمئة وألف القمريّة إذ ألقى هذه الفكرة البرّاقة ضمن محاضراته الفقهيّة إلى تلامذته الفضلاء الذين عددهم يربو على الألف، وأمرهم بالحضور في بيته للشّورى حول هذا الأمر؛ فكنت حضرت ذلك المجلس الشريف أيضاً، وسمعت منه رحمه الله أفكاره العميقة ونظرياته الدّقيقة حول نقائص الوسائل، فعدها حتّى بلغ إلى أحد عشر نقصاً، فكنت كتبته في عدّة أوراق، ثمّ بعد طبع الكتاب رأيت عدد النقص بلغ إلى ثلاث وعشرين.

وبالجملة أمر جملة من تلامذته الفضلاء بالحضور لديه للشّروع في التّأليف، كما أنّه أمر بإحضار النسخ النفيسة الخطيّة من كتب الحديث من مختلف البلاد الإسلاميّة للتصحيح والمقابلة. و صرف في سبيل هذا الأمر أكثر من مليون توماناً كما يقال. و لولا زعامته الكبرى وعظمة شخصيته الفدّة لما يمكن لأحد إتمام هذا العمل الخطير. إلى أن فرغوا في سنة ١٣٧٤ أربع وسبعين وثلاثمئة وألف القمريّة من أصل التّأليف، و بقي مطالعة نفسه الشريفة والمرور عليه وإعداده للطبع. وكان ذلك غاية أمله ومنتهى أمنيّته إلى أن هيّء للطبع المجلّد الأوّل منذ زمن حياته إلّا أنّه لم يخرج إلى عالم المطبوعات، وقد أدركه الأجل المحتوم في ١٣ شهر شوال سنة ١٣٨٠ ثمانين بعد ثلاثمئة وألف القمريّة.

وبموته وقعت القيامة الكبرى وثلم في الإسلام تلك الثّلمة العظيمة التي بوقوعها دخل عامّة أهل العلم بجميع طبقاتهم في أنواع البلايا والمحن، وبموته اضطربت أركان

الاسلام والمسلمين، وبعده أمست يتامى ولده الزوحيون وصاروا مضرويين ومجروحين ومقتولين على أيدي الكفرة الفسقة أعداء الدين والوطن، فعجل اللهم في فرج وليك المنتظر صلوات الله عليه حتى ينتقم من أعدائك.

وفذلكة الكلام؛ تخرّجت على استاذنا هذا ستّ سنين واستجزت عنه في رواية الأخبار، فأجازني تارة في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣٦٩ وأخرى في ١٤ شوال سنة ١٣٧٧ القمرية. أما كتابه «جامع الأحاديث» فقد خرج من الطبع، المجلّد الأول منه في هذه الأيام، نسئله الله لناشره توفيق إتمامه بمثته وكرمه^١.

ما هو بحار الأنوار؟

من الخير أن يقف الانسان دون ولوج هذا الباب وأن يتصاغردون هذه العظمة، وقد يكون الاعتراف بالعجز خيراً من المضي في البيان. فماذا يقول الواصف في عظمتة وعلو كعبه؟ وماذا يقول في بيان فضله وسمو مقامه؟ وماذا يكتب الكاتب في هذا الباب؟ وماذا يتفهّم به الخطيب؟ وماذا يقول في وصف كتاب كبير لا يترأى له حدّ؟

فذلك ما يقصر من دونه البيان. فحسب الكتاب عظمة وكفاه منزلة وفخراً أنّه ضمّ بين دفتيه كلام الأئمة الطاهرين مع استكشاف غوامضه واستجلاء معانيه. وجدير بكلّ مسلم بل بكلّ مفكّر من البشر أن يصرف عنايته إلى فهم هذا الكتاب واستيضاح أسرارها واقتباس أنواره؛ لأنّ أبحاثه الشريفة هي المتكفّلة بهداية البشر في جميع شؤونهم وأطوارهم في أجيالهم وأدوارهم.

فالكتاب مرجع المحدث، ودليل المتتبّع، وحجة الفقيه، في مقام الفتوى، ومثل الأديب، وضالّة الحكيم، ومرشد الواعظ، وهدف الخلقي، ومصدر لكلّ مورّخ باحث ضليع. وعنه تؤخذ علوم الاجتماع والسياسة المدنية، ومن إرشاداته تكتشف أسرار الكون ونواميس التكوين، لأنّ كلّ ذلك يوجد في كلام الأئمة الطاهرين.

على أنّ المؤلّف مشكور في سعيه، مبرور في جهاده، الذي صرف في سبيل تأليفه

١. تمّ إصدار الدورة الكاملة لهذا الكتاب في ٥٥ مجلد.

ومشاقّه الذي تحمّل، فإنّه ألقى على نفوس العلماء أشعة من أنوار العلوم والفنون. و حسبك مثلاً لذلك كتاب السماء والعالم، المشتمل على أحوال العناصر والمواليد و غيرها ممّا لا يخفى على الباحث الناقد البصير.

وليس من الإنصاف أن نكلّف أحداً وإن بلغ ما بلغ من العلم والتبحّر، أن يحيط كتابه لجميع المزايا ويخلو من النقص؛ كيف وهوشأن علّام الغيوب و كتابه القرآن، فحسب.

فالحقّ أن يقال في حقّ هذا الكتاب أنّه أكبر موسوعة علميّة للشيعة الإماميّة. وإن شئت قلت بالتعابير العصريّة أنّه «دائرة معارف الشيعة».

ما هو سفينة البحار؟

ممّا قدّمنا في وصف البحار، يظهر لك أيضاً حال سفينة البحار، لأنّه فهرس و تلخيص لمطالب ذلك الكتاب، لكن الذي بين يديك يمتاز عن أصله بحسن الترتيب و سهولة التناول، بحيث يكون كأحد من المعاجم العصريّة؛ فيجد الباحث الضّلع أمنيّته فيه بأسرع ما يكون.

والحقّ أنّه تأليف مستقلّ برأسه قد أضاف المؤلّف رحمه الله بجودة سليقته و ذكائه و فطنته كثيراً من شتات المطالب المتنوّعة في أكثر العلوم لا سيّما ما يتعلّق بالرجال و التراجم و التاريخ حتّى العصر الحاضر؛ فإنّه أدرج في كلّ مادّة ما يناسبها بحيث صار كتابه هذا ذا أهميّة وجاهة خاصّة في قلوب أهل العلم.

من هو صاحب السفينة؟

أمّا مؤلّف سفينة البحار هو الشّيخ العَلَم العالم العامل والفاضل الكامل المحدث المتبحّر المتتبّع الخبير الماهر المورّخ البصير الورع الزّاهد العابد الحاج الشّيخ عبّاس بن محمد رضا بن ابي القاسم القمي أحد أعلام الطائفة ومحدّثيها البارعين في الحديث والأدب والتّاريخ. و كان إحدى حسنات هذا القرن وفي شهرته الطائفة وصيته الطائر

في التّضلّع في الحديث ومكانته الراسية من الفضل والدين والتّقوى غنيّ عن تسطير ألفاظ الثناء عليه؛ فقد عرفه من عرفه ذلك المحدث المحقّق المبدع والباحث المكثر المجيد؛ فهو أحد نوابغ الأئمة الإسلامية والأوحد من عباقرتها الأمثال؛ وما أظنّ الزّمان سمح بمثله^١.

ورعه وثقاه وملكاته ونفسيّاته

كان صاحب الترجمة رحمه الله في درجة عالية من الزّهد والتّقوى والإعراض عن زخارف الدّنيا؛ وقد مزج العلم بالعمل، وقرن القول بالفعل بحيث كان لقوله وفعله أثر عجيب في تربية النّاس على اختلاف طبقاتهم حتّى الخواصّ والعلماء.

وبالجملة كان آية في الإيمان والورع والخلوص في العمل. وكفاك على هذا شاهداً ودليلاً تأليفاته الموجودة اليوم بأيدينا؛ فإنّ كلّ ما ألفه هذا العالم الجليل صار محبوباً عند النّاس ورغب فيه جميع الطبقات.

ولا بأس بإيراد قصّة ذكرها صاحب الترجمة في كتابه «الفوائد الرّضوية ص ٤٥٣» في ترجمة صاحب الجواهر تأييداً لما قلناه؛ فقال ما نصّه:

«وقال سلّمه الله (أي صاحب التكملة): وحدثني شيخنا الأجل فقيه العصر الشيخ محمد حسن آل يس الكاظمي عن الشيخ صاحب الجواهر، قال: لما أمرني أستاذي صاحب الجواهر بالسكنى في بلد الكاظمين والإقامة فيها لترويج الدين، قلت له: إني أرجو أن تكتب إلى الحاج علي بن الحاج محسن البوست فروش التاجر المعروف في بلدة الكاظمين أن يُعيرني ما عنده من بعض مجلّدات الجواهر. فقال الشيخ: سبحان الله! صار الجواهر ما ينسخه التّجار! والله يا ولدي أنا ما كتبته على أن يكون كتاباً يرجع إليه النّاس، وإنّما كتبته لنفسي حيث كنتُ أخرج إلى العذارات، وهناك أسئل عن المسائل وليس عندي كتب أحملها معي لأنّي فقير، فعزمت على أن أكتب كتاباً

١. انظر: مفاهير ذسلام للشيخ على الدواني، ج ١١ و ١٢؛ محدث رباني لمؤتمر تكريم القمي، وشناخت نامۀ محدث قمي لنفس المؤتمر.

يكون لي مرجعاً عند الحاجة. ولو أردت أن أكتب كتاباً مصنفًا في الفقه لكنّ أحب أن يكون على نحو رياض [المسائل، تأليف] الميرسيد عليف فيه عنوان الكتابية في التصنيف. انتهى.

فلما سمعت ذلك من شيخنا (رحمه الله) قلت: يا سبحان الله! كنت أتعجب من أمرين في الجواهر، توفيقه لإتمام الشرح ورواجه إلى هذه الدرجة. وقد ارتفع الآن تعجبي. فقال: كيف ذلك؟ فقلت: إنّ حديثكم هذا يدلّ على أنّ صاحب الجواهر لمّا كتبه لم يكن في خاطره شيء من لوازم حبّ الجاه والسمعة والتعريف، وإتّما كتبه لنفسه و قضاء حاجته لا غير. وهذا هو السبب في كلا الأمرين إتمامه ورواجه بلا مانع.

فقال الشيخ رحمه الله: صدقت، غالب التّيات مغشوشة ويتبعها لوازمها. قلت: و حدّث الشيخ الفقيه الثقة الشيخ مهدي ابن الشيخ علي ابن الشيخ جعفرانّ في زمان تصنيف الشيخ محمد حسن الجواهر، كان مقدار عشرين رجلاً من العلماء مشغولين بشرح الشرايع، ولم يتمّ ولا انتشر إلّا الجواهر. وهذا من حسن الحظّ وحسن التوفيق». انتهى كلام صاحب الترجمة.

فقد عرفت ممّا نقلناه أنّ في خلوص النّيّة وخلوّ العمل عن شائبة الرّياء دخالة تامّة في رواج الكتاب ومقبوليّته العامّة. وصاحب الترجمة أحد مصاديق الخلوص. وقد روى في سفينة البحار ج ١ ص ٤٠٨ عن مختصر الإحياء للشيخ شرف الدّين بن مونس شارح التّنبية في باب الإخلاص أنّ من أخلص لله تعالى في العمل وإن لم ينوِ ظهرت آثار بركته عليه وعلى عقبه إلى يوم القيامة.

وفذلكة الكلام أنّ صاحب الترجمة ممّا خصّه الوليّ سبحانه به وفضّله بذلك على كثير من عباده. وحرّي بأن يُعدّ من أكبر فضائله الجمّة وأفضل أعماله المشكورة مع الدهر أنّه نشر ألوية الإرشاد فأدرك خلق كثير بإرشاده التّاجع سعادة الرّشد وسبيل السّداد واتبّعوا الصّراط السّويّ، فخلّد له التاريخ بذلك كلّ ذكرًا جميلًا تضيء به صحائفه و تزدهى سطوره.

مشايخه في القراءة و الزاوية

إجمال ترجمته كما صرح نفسه في مختلف كتبه أنه كان في بدء حاله وأول شبابه قرأ مقدّمات العلوم على بعض علماء قم، ثم في سنة ١٣١٦ ست عشرة وثلاثمائة بعد الألف، ارتحل إلى النجف الأشرف وهناك أدرك أبحاث العلامة المحدث المحقق الحاج ميرزا حسين النوري صاحب المستدرک ولازم خدمته ليلاً ونهاراً حضراً وسفراً واستفاد من أبحاثه كثيراً وعاونه على مقابلة أجزاء المستدرک، ثم استجاز عنه في أواخر أيامه فأجازه في يوم الجمعة لست مضت من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٠ في الكوفة المتبركة على شاطئ الفرات بقرب من الجسر، كما صرح نفسه في «الفوائد الرضوية ص ١٥٣». ويظهر من عبارته أن إجازته شفاهية.

ويروى أيضاً بالإجازة عن السيد العلامة الرجالي الخبير المصنف المكثر السيد حسن الصدر الكاظمي صاحب «تكملة أمل الآمل» و«تأسيس الشيعة الكرام لفنون الإسلام» كما صرح نفسه أيضاً في ص ١٢٣ من الفوائد الرضوية.

أقول: وأنا أيضاً أروي عن صاحب الترجمة بواسطة جمع من مشايخي منهم العلامة الزعيم الكبير بقم المشرف السيد صدر الدين الصدر، فإنه كان مجازاً من المحدث القمي كما صرح في إجازاته.

ومن خصائص صاحب الترجمة مهارته التامة في قراءة الخطوط الكوفية كما صرح شيخنا في الزاوية الإمام العلامة المصنف المكثر الذي طبّق شهرته الآفاق السيد محسن الأمين العاملي فقال في الجزء الثالث عشر، المجلد الرابع عشر من الطبعة الأولى من كتابه القيم وموسوعته النافعة «أعيان الشيعة ص ٣٧» ما نصّ عبارته:

«وفي مرآة الزمان: توقّيت سكيّنة بالمدينة الشريفة هكذا ذكر موتها بالمدينة في كلّ تاريخ وقفت عليه خلاف ما يقوله العامة من أنها مدفونة خارج مكّة في القبّة التي في الزاهر في طريق العمرة. انتهى.

أمّا القبر المنسوب إليها بدمشق في مقبرة الباب الصغير فهو غير صحيح لإجماع



أهل التواريخ على أنها دفنت بالمدينة و يوجد على هذا القبر المنسوب إليها بدمشق صندوق من الخشب كتبت عليه آية الكرسي بخط الكوفي مشجراًيته وأخبرني الثقة العدل الورع الزاهد العابد الشيخ عباس القمي التجفي الذي هو ماهر في قراءة الخطوط الكوفيّة بدمشق في رجب أو شعبان سنة ١٣٥٦ أن الإسلام المكتوب بآخر الكتابة التي على الصندوق سكينه بنت الملك بلاشك ولا ريب وكسر ما بعد لفظة الملك، فالقبر إذاً لأحدى بنات الملوك المسماة سكينه». انتهى كلامه أعلى الله مقامه.

ومن الذين استفاد منهم المؤلف وقرأ عليهم الشيخ العلامة الكامل المتبحر المحقق جامع المعقول والمنقول الشيخ فتح الله المشتهر بشيخ الشريعة الاصفهاني كما صرح في الفوائد الرضويّة ص ٣٤٥ وفي سفينة البحار ج ١ ص ٦٩٥.

أسفاره في أقطار الأرض

كان منذ زمن ولادته إلى سنة ١٣١٦ ق. في مسقط رأسه قم، ثم ارتحل إلى النجف الأشرف، وكان بها إلى سنة ١٣١٨ ق. ثم ذهب إلى مكة لأداء الحج، ثم رجع من طريق فارس وشرّاز إلى إصفهان وقم وتوقف بها قليلاً من الزمان، ثم رجع إلى النجف ولازم شيخه النوري إلى أن توفي النوري في سنة ١٣٢٠ ق. وبعد وفاته أيضاً أقام في النجف سنين، ثم رجع إلى قم وكان بها أيضاً سنين، ثم ارتحل إلى المشهد المقدّس الرضوي و كان بها إلى سنة ١٣٤٦ ق. ثم ذهب إلى النجف وبقي بها إلى أن توفي رحمه الله.

مؤلفاته الممتعة

ألف طيلة حياته كثيراً من الكتب النافعة في مختلف الموضوعات، وقد طبع أكثرها مرّات عديدة. وكل واحد منها أخذ حظاً وافراً من الشهرة والمقبولية العامة، وإليك أسماؤها:

١. الأدعية المنتخبة، طبع في سنة ١٣٦١ ق. على الحجر في طهران.

٢. الأربعين حديثاً، طبع في سنة ١٣٥١ ق. بطهران.

٣. الأنوار البهية في تواريخ الحجج الإلهية، طبع في سنة ١٣٤٤ ق. بتبريز.
٤. الباقيات الصالحات، طبع في هامش مفاتيح الجنان.
٥. بيت الأحزان في مصائب سيّدة النسوان، طبع بطهران.
٦. تنمة المنتهى في وقايع أيام الخلفاء، طبع سنة ١٣٢٥ ش.
٧. تتميم تحية الزائر، طبع في سنة ١٣٢٧ ق. بطهران.
٨. تحفة الأحاب في نوادر آثار الأصحاب، طبع في سنة ١٣٦٩ ق.
٩. التّحفة الطّوسيّة والنّفحة القدسيّة، طبع في سنة ١٣٣٧ ق. بطهران.
١٠. ترجمة جمال الاسبوع للسيد ابن طاووس، طبع في هامش مقالات العليّة.
١١. حكمة بالغة ومائة كلمة جامعة، طبع في سنة ١٣٣٢ ق. بطهران.
١٢. الدّرة اليتيمة في تتّامات الدّرة الثّمينة، وهو تتميم شرح التّصاب للفاضل اليزدي، طبع في سنة ١٣١٦ ق.
١٣. ذخيرة الأبرار في منتخب أنيس التّجار، طبع مع المجلّد الثاني من غاية القصوى في بغداد، سنة ١٣٣٠ ق.
١٤. رسالة في الكبائر والصغائر، طبع بطهران.
١٥. رسالة دستور العمل، طبع بطهران سنة ١٣٥٩ ق.
١٦. سبيل الرّشاد في أصول الدّين، طبع بقم.
١٧. سفينة البحار ومدينة الحُكم والآثار، وهو الكتاب الذي بين دفتيك، ومن أحسن مؤلّفاته، وقد صرف في تأليفه أكثر من عشرين سنة من حياته كما في ص ١٨٣ من كتاب علماء المعاصرين للفاضل الواعظ الخياباني المعاصر، نقلاً عن المؤلّف. فاعرف قدر هذا الكتاب ولا ترخص مهره.
١٨. غاية القصوى في ترجمة العروة الوثقى، طبع ببغداد سنة ١٣٣٠ ق.
١٩. الفصول العليّة في المناقب المرتضويّ، طبع بقم.
- ٢٠.

٢١. الفوائد الرضوية في أحوال علماء مذهب الجعفرية، طبع بطهران سنة ١٣٦٧ ق.
٢٢. كحل البصر في سيرة سيد البشر، طبع بقم سنة ١٣٧٧
٢٣. الكنى والألقاب في تراجم علماء العامة والخاصة، وقد نقل في هذا الكتاب عن كتاب روضات الجنات لجَدنا العلامة كثيراً من المطالب بعيون ألفاظها، طبع في صيدا سنة ١٣٥٨ ق.
٢٤. اللئالي المنثورة في الأحرار والأذكار الماثورة، طبع.
٢٥. ترجمة اللهوف، طبع سنة ١٣٢٣ ق.
٢٦. مختصر الأبواب في السنن والآداب، وهو تلخيص حلية المتقين، طبع مكرّراً.
٢٧. مختصر أنيس التجار، طبع ببغداد.
٢٨. ترجمة مصباح المتهجد، طبع بطهران سنة ١٣٤٧.
٢٩. مفاتيح الجنان، وقد رُزق هذا الكتاب من الشهرة والاستعمال ما لا يوصف بحيث لا يوجد في إيران، بل وفي سائر البلاد داراً أو بيتاً لشيعة الإمامية إلا وفيها نسخة من هذا الكتاب أو أكثر. وكفى به شرفاً وفخراً لأن المؤلف المرحوم في كل يوم وليلة يمرئى ومنظر الزائرين والداعين إلى الله. وبذلك يصل إلى روحه الشريف وقبره المقدس أكثر البركات والتحيات. وطبع هذا الكتاب بأحسن صورة طباعية مرّات عديدة.
٣٠. المقالات العلية في موجبات السعادة الأبدية في مختصر معراج السعادة، طبع بطهران سنة ١٣٣٠ ق.
٣١. المنازل الآخرة والمطالب الفاخرة، طبع بطهران والتجف.
٣٢. منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، طبع بطهران سنة ١٣٤٤ ق. وطبع مكرّراً أيضاً.
٣٣. نزهة التواظر في ترجمة معدن الجواهر، طبع بطهران.
٣٤. نفثة المصدور في ما تجدد به الحزن يوم العاشر، طبع بطهران سنة ١٣٤٢ ق.
٣٥. نفس المهموم في مقتل الحسين المظلوم، طبع بطهران سنة ١٣٣٥ ق.

٣٦. هداية الأنام إلى وقائع الأيام، طبع بطهران سنة ١٣٥١ ق.
٣٧. هدية الزائرين وبهجة الناظرين، طبع في سنة ١٣٢٤ ق. بطهران.
٣٨. هدية الأحباب في ذكر المعروفين بالكنى والأنساب والألقاب، طبع سنة ١٣٤٩ ق. بالتجف الأشرف^١.
- هذا فهرس كتبه المطبوعة المنتشرة وهناك عدة تأليفات أخر له رحمه الله، لم تزل مخطوطات في أيدي ورثته؛ مثل:
- [٣٩] كتاب الكشكول
- [٤٠] وكتاب الدرّ النظيم في لغات القرآن العظيم^٢
- [٤١] وكتاب نقد الوسائل وتتميم بداية الهداية^٣
- [٤٢] وشرح وجيزة شيخنا البهائي
- [٤٣] ومختصر حقّ اليقين
- [٤٤] ومقاليد الفلاح في عمل اليوم والليلة
- [٤٥] وكتاب مقلاد النجاح
- [٤٦] وشرح كلمات القصار
- [٤٧] ومختصر الشمائل^٤
- [٤٨] وقرة الباصرة في تاريخ الحجج الطاهرة^٥.
- وله أيضاً مؤلفات مفقودة الأثر، صرّح بأسمائها في ترجمة نفسه في ص ٢٢٢ من كتابه الفوائد الرضوية، فليراجع.

١. طبع جلّ هذه الكتب مراراً كما ورد التفصيل في كتاب محدث رباني.

٢. طبع بقم سنة \$\$\$

٣. بل هما كتاب واحد، وهو تتميم لكتاب البداية للشيخ حرّ العاملي، ويُسمّى أيضاً باسم «فصل ووصل»، كما صدر في مجلدين بقم \$\$\$

٤. طبع بقم سنة \$\$\$ وهو شرح لكلمات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

٥. وهو مختصر لكتاب شمائل رسول الله للترمذي، و طبع بقم سنة \$\$\$\$

٦. طبع بقم سنة \$\$\$\$

ولادته ووفاته

ولد صاحب الترجمة سنة ١٢٩٤ أربع وتسعين بعد مأتين وألف بقم المشرفة وبعد مضي خمس وستين سنة من عمره الشريف توفي في النجف الأشرف بعد التّصف من ليلة الثلاثاء، الثالث والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١٣٥٩ تسع وخمسين بعد ثلاثمائة وألف القمرية، ودفن عند رجلي شيخه النوري صاحب المستدرك في الإيوان الثالث على اليمين الداخل من باب القبلي إلى الصحن الشريف الغروي. وقد تشرفت بزيارة قبره هناك.

ورثاه جماعة من الشعراء، منهم صديقنا الأديب الأريب الفاضل الورع المعاصر الحاج شيخ علي أكبر مروج الاسلام الخراساني سلّمه الله وأبقاه في كتابه «هدية المحصلين ص ٥٥» فقال:

چون مروج با دل محزون به طبع گفت سال رحلتش بنما بیان
طبع پا اندر میان بنهاد و گفت: با مفاتیح الجنان شد در جنان
(١٢٨٩ + ٧٠ (ع) = ١٣٥٩).

ولنعم ما قال وأجاد من طبعه الوقاد.

وخلف المترجم على علمه الجمّ وفضله المتدفّق ولداه العالمان الفاضلان، الآقا الحاج ميرزا علي (محدث زاده) والآقا الشيخ محسن سلّمهما الله ووفقهما لما يحبّ و يرضاه.

مصادر الترجمة

تجد ترجمته والثناء عليه بما هو أهله في غصون كثير من معاجم التراجم؛ أمثال: أحسن الوديعه في أشهر مشاهير مجتهدى الشيعة للعلامة الجامع المتبحر الخبير البارع، ابن خالنا الآقا السيّد محمد مهدي الاصفهاني نزيل الكاظمين وأحد الأعلام والزعماء الكبار بها، وأعيان الشيعة، والذريعة إلى تصانيف الشيعة، وريحانة الأدب، وعلماء المعاصرين، ومصفّى المقال في مصتفي علم الثّوبجال، ومؤلفين كتابهاى چاپى.

وتجد الترجمة أيضاً في كتب نفسه مثل سفينة البحار والفوائد الرضوية والكنى و الألقاب وهدية الأحاب. وأبسط من جميع ذلك موجودة في كتابنا الكبير «المستدركات على روضات الجنات» الذي هوتحت الطبع مع أصل الروضات. ولنا كلمة قيمة حول صاحب الترجمة أدرجناها فيه.

ختام البحث

لا بد أن نتذكر في ختام البحث أنه لما نفذ نسخ هذا الكتاب مع كثرة رغبته، فقد نهض لنشره وقام بإعادة طبعه الشبان الخيران الذين الموققان لنشر الآثار الدينية، و هما الآقا ميرزا داود الشيرازي مدير مكتبة السنائي بطهران وشريكه في العمل الآقا ميرزا حسين، وفقهما الله لكل خير، ونرجو لهما دوام التوفيق والتسديد.

وقد فرغ من تأليف هذه المقدمة ناسقها العبد الحقير الميرسيد أحمد الرضاتي عفا الله عنه في الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام من شهور سنة ١٣٨٢ اثنتين وثمانين بعد ثلاثمائة وألف القمريّة الهجريّة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

